

طرق المعرفة وطرائق إجراء البحث الجغرافي

ستيوارت أيتكين وجيل فالنتاين

ترجمة بتصرف

أ.د. مضر خليل عمر

يُعدّ هذا الكتاب بمثابة مقدمة سهلة الفهم لطرق المعرفة المتنوعة في الجغرافيا المعاصرة ، بهدف إبراز الروابط المهمة والاستراتيجية بين الفلسفات والنظريات والمنهجيات والممارسات . وهو بذلك يبني على الكتب الأخرى في هذه السلسلة : "المفاهيم الأساسية" (هولواي، رايس، وفالنتاين، ٢٠٠٣)؛ "الأساليب الأساسية" (كليفورد، وفالنتاين، ٢٠٠٣)؛ و"المفكرون الأساسيون" (هوبارد، كيتشن، وفالنتاين، ٢٠٠٤). هدفنا هو توجيه الطلاب المبتدئين إلى الروابط المعقدة والمتشابكة أحياناً بين طرق المعرفة وطرق إجراء البحث الجغرافي . **إنه كتاب فلسفي مُصمم ليكون عوناً عملياً وقابلاً للاستخدام في إرساء أسس مشاريع**

الباحثين وأطروحاتهم ورسائلهم العلمية . إنه محاولة لرفع الستار الذي يبدو غامضاً أحياناً والذي يُخفي القضايا الفلسفية والنظرية ، ولإظهار كيفية ارتباط هذه القضايا ارتباطاً مباشراً بالمنهجيات والممارسات .

يُسلط الكتاب الضوء على بعض الجوانب المفيدة للغاية لمجموعة متنوعة من الأسس الفلسفية والنظرية - ما نسميه طرق المعرفة . ويدافع الكتاب عن تبني طرق معرفة معينة من حيث كيفية تأثيرها على الأساليب والممارسات . نعتقد أن **طرق المعرفة لا تُحرك مشاريع البحث الفردية فحسب ، بل تُحفز أيضاً**

الإمكانات الإبداعية للجغرافيا ك تخصص . فالفلسفات والنظريات ، كطرق معرفة ، ليست مجرد مساعي أكاديمية ذات تأثير ضئيل على كيفية عملنا وعيشنا . يتجنب الكتاب المصطلحات المعقدة واللغة والمفاهيم المعقدة ، مع الحفاظ على دقة وتعقيد الأفكار التي تقوم عليها المعرفة الجغرافية ، وكيفية تضاربها واختلافها . وقد كُتب هذا الكتاب للطلاب الذين لم يسبق لهم الاطلاع على المناهج الفلسفية أو النظرية، ولذلك نعهده دليلاً

أساسياً للبحث والممارسة الجغرافية . ونؤمن **بأن تأسيس البحث على الفلسفة والنظرية أمرٌ أساسي لبحوث**

الجغرافيا البشرية ، لأنه يوفر مدخلاً للعمل التجريبي ، ويضع المراجعات الأدبية في سياقها الصحيح ، ويبلور مجموعة من المعارف التي ينمو حولها هذا التخصص ، وينشط الأفكار، وقد يُضفي الشرعية على النشاط الاجتماعي والسياسي . علاوة على ذلك ، والأهم من ذلك ، أن فهم الفلسفة والممارسة يوجه تخصص الجغرافيا مفاهيمياً وعملياً نحو التغيير الاجتماعي التقدمي ، من خلال بلورة فهم أوضح لتعقيد عالمنا المكاني .

ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء : الفلسفات ، والأشخاص ، والممارسات . في الجزء الأول ، يُقدم أكاديميون بارزون "حججاً" خاصة وجزئية لفلسفات معينة ، ويوضحون حججهم بأمثلة موجزة . على الرغم من أنه ليس شاملاً ، إلا أن هذا الجزء يغطي شريحة واسعة من وجهات النظر الفلسفية ، ويُسلط الضوء على بعض التوترات بين مختلف طرق المعرفة . لا يهدف هذا الجزء إلى تقديم دليل شامل للطلاب حول الفلسفات في الجغرافيا (وهذا يُحقق بشكل أفضل من خلال نصوص أكثر تخصصاً مثل لا يقتصر هذا الكتاب على الجوانب النظرية (مثل جونستون، ١٩٩١؛ كلوك وآخرون، ١٩٩١؛ أونوين، ١٩٩٢)، بل يُقدم رؤية عملية حول كيفية تأثير الفلسفات على العمل ، **وكيف تستند أسئلة البحث دائماً إلى افتراضات وخيارات بين طرق المعرفة المختلفة** . لا تُحل الفصول النقاشات الفلسفية؛ بل تُرشد الطلاب إلى التفكير في الخيارات والافتراضات التي يجب اتخاذها عند بدء مشروع بحثي ، وعند اختيار المنهجيات .

أما الجزء الثاني من الكتاب ، فيضع الفكر الجغرافي في سياقه المُعقد وصراع الأشخاص في سياقات مختلفة . في الجغرافيا البشرية المعاصرة ، يُركّز على المعارف المكانية أو السياقية - والتي تتجدر في الاعتقاد

النسوي بأن "الشخصي سياسي" وتحدي العلم النسوي النقدي للمفاهيم التقليدية للممارسة العلمية كموضوعية وغير مجسدة (هارواي، 1991؛ روز، 1997). ولذلك ، ينظر الكثيرون إلى الكتابة الشخصية كاستراتيجية مهمة لتحدي الطبيعة المجردة والنزيفة للكتابة الأكاديمية السابقة (مثل موس، 2001). في الجزء الثاني ، يكتب العديد من الجغرافيين البارزين عن الأشخاص والأماكن والأحداث التي شكّلت طرقهم الشخصية في المعرفة . وأخيرًا ، غالبًا ما تُدرّس الفلسفة بشكل منفصل عن المنهجية ، مما يعني أن الطلاب يفشلون أحيانًا في إدراك الروابط بين النظريات والممارسات .

يستعرض الجزء الأخير بعض هذه العلاقات ويوضحها بأمثلة من مجموعة من الدراسات الجغرافية . يواجه الطلاب الذين يبدأون مشروعًا بحثيًا في الجغرافيا مجموعة هائلة من المنهجيات والممارسات . ترتبط هذه المنهجيات والممارسات ارتباطًا معقدًا بالنظريات والفلسفات . البحث الجغرافي، الذي يتألف من شبكة غامضة من المنهجيات والنظريات والفلسفات والممارسات ، يُفصل في نهاية المطاف المعرفة الجغرافية . لقد حاولنا تمثيل هذا التعقيد في الشكل 1.1 ، ومع ذلك ، يُشكّل هذا الرسم البياني ويُمثّل اهتماماتنا ببساطة شديدة . طرق العمل ليست مرتبطة بطرق جامدة للمعرفة ، بل تتغير مع تعرض مجموعة من الأفكار للتحدي والإثراء من قِبل مجموعات أخرى . إن كيفية تعاملنا مع العالم من خلال النظريات والفلسفات - طرق معرفتنا - تخضع باستمرارٍ للتحسين ، والتحدي ، والرفض ، و/أو التغيير .

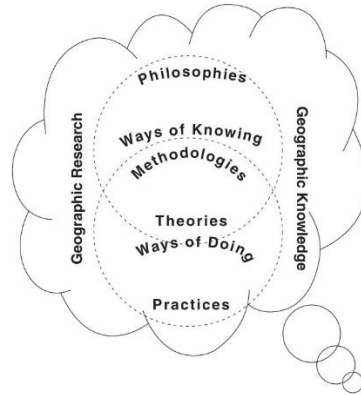


Figure 1.1 Ways of knowing and ways of doing

عادةً ما يُفهم أن التقاليد النظرية (الوضعية ، والإنسانية ، والماركسية ، والنسوية ، إلخ) قد نشأت وسيطرت على التفكير الجغرافي في أوقاتٍ مُحددة لفترةٍ زمنيةٍ مُحددة . بعبارةٍ أخرى ، أصبحت ما أسماه كون (1962) "النماذج السائدة" . على هذا النحو ، رسم بعض الكتاب خريطةً لتطور واعتماد مناهج فلسفيةٍ مُختلفة ضمن تخصص الجغرافيا (مثل جونستون، 1991؛ أونوين، 1992) مُسلّطين الضوء على التحولات النموذجية - عندما تظهر مناهج فلسفية جديدة لتحدي طرق التفكير السابقة . يُشير جونستون (1996) إلى أن التحولات النموذجية هي نتيجةً للتحولات الجيلية . وهكذا ، يتبنى الأكاديميون الأصغر سنًا طرق التفكير الجديدة في البداية ؛ مع ترسيخ هذا الجيل ، وتولية تحرير المجلات وتأليف الكتب المدرسية ، تبرز أساليب تفكيره .

بدأ النهج النموذجي للجغرافيا في خمسينيات القرن الماضي ، عندما ظهر **علم المكان الوضعي** لتحدي التقليد الإقليمي في الجغرافيا وتجاوزه . بدوره ، يُعتقد أن النموذج الوضعي قد انقلب في سبعينيات القرن الماضي على يد مناهج أخرى ، مثل الجغرافيا السلوكية ، والجغرافيا الإنسانية ، والمناهج الراديكالية ، بما في ذلك الماركسية والنسوية . في تسعينيات القرن الماضي ، عد المنظور النموذجي أن ما بعد البنيوية قد

حلت محل هذه الأساليب في التفكير. ومع ذلك ، بينما يتم أحياناً استبعاد مجموعة كاملة من الأفكار في ضوء أوجه القصور الملحوظة ، فإن جزءاً من التفكير يستمر عادةً بشكل أو بآخر (ينظر الشكل 1.2). قد يُعطي الإطار المؤسسي للمنظمات المهنية والمجالات والأقسام الجغرافية امتيازاً أو يعزز هناك طرق تفكير عصرية خاصة ، ولكن هناك دائماً أصوات معارضة . في الواقع ، معظم طرق المعرفة جزئية ومتغيرة باستمرار؛ فهي تستمر في التغير مع قيام الجغرافيين بفحص وإعادة فحص نقاط قوتها وضعفها ، ومع ظهور أفكار جديدة كتحدي . يشمل هذا التخصص دائماً مجموعة من الأجيال ، وعلماء لا يتصرفون وفقاً لأعمارهم ! وبالتالي ، فإن السرد الخطي لتطور النماذج الموحدة يخلق ، بشكل زائف ، شعوراً بالتقدم المتسلسل ، في حين أن الإجماع نادراً ما يكون كاملاً أو مستقرًا .

على الرغم من أن فصول هذا الكتاب مرتبة بشكل فضفاض فيما يتعلق بتسلسل ظهورها في هذا التخصص ، إلا أننا لا ننوي أن نشير إلى أن إحداها حلت محل الأخرى . بل إن هدفنا هو إظهار كيف أن كل نهج في المعرفة الجغرافية (الجغرافيا الوضعية ، والجغرافيا الإنسانية ، والماركسية ، والنسوية ، وما إلى ذلك) يحتوي على مسارات فكرية متعددة ، وكيف استمر كل منها في التطور، مهما كانت مكانته النموذجية .

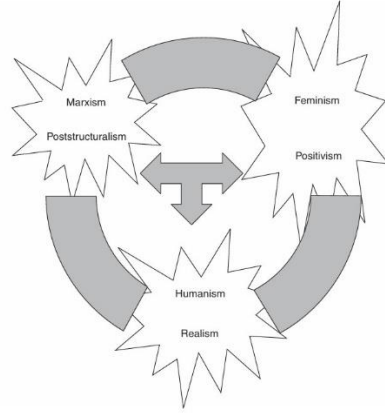


Figure 1.2 Ways of knowing clash, connect and change

جزء من متعة البحث الجغرافي يكمن في السعي الدائم لفهم هذه المنظورات المتغيرة وارتباطاتها . **عند كتابة مقترح بحث ، يجب اتخاذ خيارات بشأن الطرق المناسبة للمعرفة والتطبيق .** يجب أن يكون الطلاب على دراية بافتراضات طرق معينة للمعرفة ، وكيف تساعد في طرح الأسئلة المناسبة ، ومدى ملائمتها للإجابة عن تلك الأسئلة . في النهاية ، يجب أن يكون جميع الباحثين قادرين على تبرير إجاباتهم عن أسئلة بحثهم ، وأن يكون هذا التبرير لا يمكن تجنب الطرق الفلسفية والنظرية للمعرفة . وبهذا المعنى ، تُعدّ الفلسفة شكلاً من أشكال التواصل ، ليس فقط فيما نعرفه ، بل أيضاً فيما يتعلق بكيفية معرفتنا به . ويشير فهم العمليات الفلسفية كأشكال للتواصل إلى استعارة تربوية مهمة . تُجادل إلسبيث غراهام بأن **"الفلسفة للبحث كالتحقيق للغة... فكما لا يمكننا التحدث بلغة دون قواعد نحوية معينة ، كذلك لا يمكننا إجراء بحث ناجح دون اتخاذ خيارات فلسفية معينة"** (1997: 8).

تُساعد الفلسفة على وضع إجابات أسئلتنا البحثية في سياقها وتبريرها بطرق تُوصل ما نعرفه . ما يزال بإمكاننا التحدث والكتابة دون وعي بالبحر ، ولكنه موجود دائماً . القواعد النحوية استعارة مفيدة لفهم دور الفلسفة في مشاريع البحث ، لأنها تشير إلى أنه كلما زادت معرفتنا بالأسس الفلسفية ، زاد تقديرنا لمدى تأثيرها على عملنا . إذا كان البحث أشبه بالأسس النحوية للغة ، فإن غراهام (1997) يشير ، متعمقاً في الاستعارة ، إلى أنه يجب على الباحث المبتدئ تعلم المفردات والمصطلحات المناسبة . يتضمن ذلك قراءة وتعلم مفردات

وقواعد ونحو مجتمع اللغة الذي يرغب في الانضمام إليه . وكما أن الإسبانية المكسيكية وممارسة الثقافة المكسيكية مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً ، وتختلفان تماماً عن الإنجليزية الاسكتلندية وممارسة الثقافة الاسكتلندية ، فإن الفلسفات أيضاً مرتبطة ارتباطاً وثيقاً متميزة .

يستخدم الجغرافيون الماركسيون مصطلحات مثل الإنتاج ، وإعادة الإنتاج الاجتماعي ، والطبقة ، والبنية الفوقية ، والديالكتيك ؛ ويستخدم الجغرافيون الوضعيون مصطلحات مثل النماذج ، والفرضيات ، والقوانين ، وقابلية التحقق ؛ ويستخدم النسويون والمنظرون المثليون مصطلحات مثل النظام الأبوي ، والأجساد ، والجنسانية ، والأداء ؛ ويستخدم الجغرافيون الإنسانيون والتجريبيون مصطلحات مثل الجوهر ، والأمر المسلم به ، والعدمية (هذه المصطلحات وغيرها مُعرّفة ومُشرحة في جونستون وآخرون، 2000 وماكدويل وشارب، 1999) . تُبنى أنظمة المعنى حول هذه الاختلافات اللغوية ، ولذلك يجب على الباحث المبتدئ إتقان أكثر من مجرد المصطلحات : يجب عليه أيضاً إشراك الثقافات والممارسات المرتبطة بها .

على سبيل المثال ، قد يتبع الباحث الوضعي الذي يمارس ممارسة التزييف قواعد اختبار الفرضيات ؛ قد ترغب الباحثة النسوية المنخرطة في ممارسة الموضوعية في فهم سياساتها الشخصية وموقعيتها فهماً كاملاً . وكما تتصادم وتتدمج جوانب من الثقافات والممارسات الاسكتلندية والمكسيكية ، كذلك تتصادم وتتدمج جوانب من الإنسانية والماركسية والنسوية ونظرية الكوير والوضعية . الروابط والصراعات مُرهقة ومُبهجة في آنٍ واحد . مُبهجة لأنها تُمثل جوهر النقاشات الإبداعية والممارسات الهادفة ؛ ومُرهقة لأن الطلاب الذين يقرؤون هذا الكتاب يُطلب منهم اكتساب معرفة عملية بالعديد من اللغات في آنٍ واحد .

طرق المعرفة ، بالطبع ، تختلف تماماً عن قواعد اللغة من حيث أنها أكثر جوهرية في آنٍ واحد ، وغالباً ما تكون أكثر تعقيداً . الفلسفة ، كطريقة للمعرفة ، تُفصل هياكل وجوهر وجودنا . وهذا ما يُعرف بعلم الوجود . تتألف الأطولوجيا من نظريات ، أو مجموعات من النظريات ، تسعى للإجابة عن أسئلة حول ماهية العالم حتى تتحقق المعرفة . كما تبحث الفلسفة في أصل وأساليب وحدود معرفتنا بالوجود . أي أنها تُحدد ما يُقبل كمعرفة صحيحة . وهذا ما يُعرف بنظرية المعرفة . في تقاليد عصر التنوير اليوناني ، يُرَوَّج للمنطق والعقل كأساس لجميع نظريات المعرفة . من هذا المنظور الغربي ، يُفترض أن العقول عقلانية في جوهرها ، ولديها تجارب متشابهة مع العالم (بيت، 1998: 5) . كما يُفترض أنه يمكن تجريد الأفكار من العالم المادي ، وهدف الفلسفة هو تنظيم هذه الأفكار في أنماط متماسكة ، ثم تقييم المعرفة المستمدة من تلك الطرق . بمجرد التفكير في هذه الأنماط ، يُتحدث عنها ويُكتب عنها بحيث يُمكن فهمها كمسلمات تدور حولها جوانب من الوجود ، أو يُمكن انتقادها ورفضها . في أدق صوره ، يوحي افتراض أن جميع العقول تعمل بالطريقة نفسها بإمكانية وجود فلسفة واحدة ، موحدة وشاملة . وترى مجموعة بديلة من التقاليد الفلسفية أن طريقة تفكيرنا هي بناء اجتماعي ، وليست مشتقة من منطق فطري عالمي . ومن هذا المنظور البنائي الاجتماعي ، تُستمد الفروقات بين الفلسفات المختلفة من بيئات سياسية وثقافية مختلفة ، ثم تُفرض على عقول من ينتمون إلى هذا السياق . ويقبل هذا الموقف أن علم الوجود يركز على نظرية المعرفة ، وأن جميع نظريات المعرفة مُضمنة في الممارسة الاجتماعية .

لا ينظر معظم مؤلفي هذا الكتاب إلى الفلسفة كأساس للمعرفة ، مُجرد تماماً من الناس والأماكن التي يعملون فيها . بل يفترضون أنها القوة الدافعة التي تربطنا بالآخرين ، والتي تُحدد هويتنا، وما نعرفه، وما نفعله . ولا يعتقد معظم المؤلفين أن الفلسفة والنظرية تحتاجان إلى استخدام المنطق والاستدلال فقط لتنظيم المعرفة في أنظمة فهم رسمية . ويعتقد البعض أن المعرفة تأتي أيضاً من طرق معرفة أقل عقلانية وأقل تمثيلاً ، مستمدة من مشاعر مثل الغضب والعاطفة والحب والفرح والخوف . وتُستمد طرق المعرفة، جزئياً على الأقل ، من هذه المشاعر وغيرها التي يصعب أحياناً الكتابة عنها ، وتُمثل في شكل منطقي . تُعد الفلسفة

، كما هو موضح في فصول هذا الكتاب ، بناءً اجتماعيًا وسياسيًا وثقافيًا يتضمن عناصر من العقلانية واللاعقلانية . ولذلك ، يُجادل بعض المؤلفين بأن العقلانية التي قَدَّرها مفكرو عصر التنوير اليوناني تتأثر بالمعتقدات والمعاني اللاعقلانية المستمدة من أجسادنا وعواطفنا ، بالإضافة إلى المعاني الثقافية والأماكن التي نعمل ونعيش فيها.

النظريات كطرق للمعرفة والوجود

قد تكون النظرية أقل تعقيدًا من الفلسفة ، لكنها لا تقل أهمية عنها كطريقة للمعرفة . إذا كانت الفلسفة تشمل طرقًا أوسع للمعرفة تربطنا بمعتقدات وقيم ومعاني الآخرين (تُعرف أحيانًا باسم الميتافيزيقيا) وتُنظَّم ما نعرفه ، فإن النظرية تُوسِّع هذا ليشمل تجارب الحياة اليومية . وكما يُشير ريتشارد بيت (1998: 5) ، فإن النظرية "أكثر اتصالًا مباشرًا بوقائع وأحداث وممارسات الواقع المُعاش" من الفلسفة . ويُجادل بأن النظرية تُشتق استقرائيًا (تعمل من الخاص إلى العام) وبشكل أساسي من مصادر تجريبية (تلك المُستمدة مباشرة من التجربة) . ويضيف أن النظرية تبحث عن "القواسم المشتركة أو أوجه التشابه ، ولكن أيضًا (ربما) أنظمة الاختلاف ، أو ربما ، مجرد الاختلاف" . كما أن النظريات استنتاجية (تعمل من العام إلى الخاص) لأنها غالبًا ما تتكهن من جانب واحد من جوانب الاختلاف والتفرد إلى جوانب أخرى .

بينما تتناول الفلسفة أنظمة أوسع وشبكاتٍ من المعاني ، تتناول النظرية مجالًا أكثر تحديدًا من الفهم والوجود في العالم . في مجال العلوم التجريبية ، تُبنى الفرضيات كأنظمةٍ من النظريات تُختبر من خلال التجربة والملاحظة والتجربة . في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، تتناول النظريات الاجتماعية أو النقدية مباشرةً فهم المنظورات والخصائص الاجتماعية والسياسية والثقافية من حيث صلتها بالتحويلات داخل المجتمعات والحياة اليومية للناس.

الممارسات كطرقٍ للمعرفة والوجود والفعل

الممارسات هي طرقٌ للمعرفة في العمل.

يشارك الأكاديميون في إنتاج المعرفة ونشرها . تساعد الفلسفات في توضيح الأسس الأنطولوجية والمعرفية لهذا الإنتاج . وتساعد النظريات في بلورة إنتاج المعرفة من التجربة والتجريب ، وتتحدى أحيانًا الحكمة التقليدية . وبالتالي ، فإن النظريات ليست محايدة أو منحازة ، بل هي أدوات إقناع مدعومة بالتجربة . بالنسبة للبعض ، فإنها توحى بالعمل . قد تتجلى هذه الممارسة في الحياة اليومية ، أو قد تتخذ شكل النشاط الاجتماعي والسياسي . كما أن ممارسات التدريس والبحث هي أساليب عمل ، وهي مشحونة بإرادة ونية سياسية ، صريحة أحيانًا ومبطنة أحيانًا أخرى . بالنسبة لبعض الأكاديميين ، لا يقتصر العمل على التدريس والكتابة فحسب ، بل يشمل أيضًا نقل قيمهم ومعتقداتهم وفلسفاتهم ونظرياتهم إلى العالم الذي استُمدت منه ، في محاولة لتغييره نحو الأفضل .

البحث العلمي ، مثل النشاط الاجتماعي والسياسي ، غالبًا ما يكون سياسيًا بشدة . إنه يتفاعل مع السياقات الأوسع للأزمات الاجتماعية والظلم والرفاهية ، ويُنَبِّئُ بها . في هذا المجال ، تتصادم التخصصات العامة والتخصصات الفرعية وتتنافس مع بعضها البعض في محاولاتها للاستجابة للأزمات الاجتماعية والظلم . يمكن أن تصبح هذه الصراعات الداخلية داخل الأوساط الأكاديمية لاذعة نظرًا لمحدودية الوصول إلى الموارد والأموال المحدودة . وبينما يُروَّج النقاش الأكاديمي للسعي إلى الحقيقة أو إلى عالم أفضل ، فإنه يدور أيضًا حول المكانة والسلطة والسيطرة على الموارد . تُرسي هذه الصراعات أحيانًا الحدود بين الخطابات المختلفة و أحيانًا تتجاوزها ؛ وكثيرًا ما تُشعل صراعاتٍ حامية بين طرقٍ معرفية تبدو متنافسة .

باختصار، يفتح تدريس الجغرافيا والبحث والكتابة وممارستها آفاقاً واسعة من المعرفة، والتي غالباً ما تتعارض. نؤمن بأن الطرق المتنوعة لمعرفة الجغرافيا وممارستها هي أساس هذا التخصص. فعندما تصطدم وتتأخر، كما يحدث غالباً، تنطلق طاقة إبداعية تشكك في الافتراضات وتدفع التفكير إلى الأمام، غالباً بطرق مثيرة للاهتمام ومبتكرة ومثيرة. قبل سنوات عدة، وضعت لجنة في الاجتماعات السنوية لجمعية الجغرافيين الأمريكيين دعاءة فلسفتين متنافستين ظاهرياً، الإنسانية والوضعية، في نقاش رسمي. امتلأت القاعة بالجغرافيين المتلهفين لرؤية بعض عمالقة الفكر يتصارعون. لم يكن الصراع نية منظمي الجلسة العامة، الذين شرحوا في ملخص الجلسة إمكانية وجود أرضية مشتركة بين الإنسانية والوضعية.

بدأ النقاش بأدب، حيث أعربت المنسقة عن رغبتها في استخدام هذا المنتدى كأساس للمضي قدماً في إيجاد أرضية مشتركة نحو التوليف. وبينما قبل المتحاورون إمكانية وجود أساس للنقاش، فقد قدموا حججاً متنوعة لميولهم الفلسفية الخاصة، بطرق خاصة جداً. وفي عرض حججهم، استخدم المتحدثون إما خطابة تقبلت بأدب طرقاً بديلة للمعرفة، ولكن فقط كمنظورات يمكن دمجها في ممارسة ميولهم الفلسفية الخاصة، أو هاجموا مقدمات خصومهم كونها واهية. على سبيل المثال، وضعت الفلسفات الإنسانية كأساس للوجود والوعي، والتي اشتق منها التحليل الرياضي والاستنتاج المنطقي كمجرد طرق مجردة للمعرفة. بدلاً من ذلك، نُظر إلى الوضعية والمنظورات العلمية على أنها النهاية المنطقية للتقييمات الإنسانية التي لم تُقدم سوى بيانات نوعية يُمكن من خلالها بناء فئات كمية. بعد العروض التقديمية، نشأ نقاش لاذع للغاية. كان العلماء الذين بنوا مسيرتهم المهنية على فلسفة معينة مترددين في قبول إمكانية أن تكون طريقتهم في المعرفة إما تابعة أو أقل عملية من طريقة أخرى في المعرفة، ولم يقبلوا بالتأكيد إمكانية أن تكون طريقتهم في المعرفة معيبة.

في السنوات الأخيرة التي لا تُحصى، نشأت صراعات أخرى بين فلسفات متنوعة في معظم اجتماعات الجغرافيا الرئيسية حول العالم، وكذلك في الأعمال المنشورة. باستخدام مجموعة متنوعة من الأدوات البلاغية، وضعت البنيوية في مواجهة ما بعد البنيوية؛ والماركسية في مواجهة ما بعد البنيوية أو النسوية؛ والأيدولوجيا في مواجهة القانونية؛ وما بعد الاستعمارية في مواجهة حماية البيئة؛ وحماية البيئة في مواجهة النسوية؛ والإمكانية مقابل الاحتمالية؛ والمناهج العلائقية مقابل نظريات البنيوية؛ وما إلى ذلك.

أحياناً، تصبح النقاشات قصيرة النظر للغاية، وربما غامضة بعض الشيء، عندما تتحدى، على سبيل المثال، نظرية الكوير النسوية أو تُنتقد السلوكية. ومع ذلك، في كل تفاعل للأفكار والممارسات، تكمن إمكانية إبداعية للتغيير. على الرغم من تغير الخطاب، إلا أن مصطلحات هذه الاشتباكات غالباً ما تدور حول ما تقترحه مجموعة من الفلسفات والنظريات كأساس للمعرفة الجغرافية، ومدى عملية هذه الفلسفات والنظريات في تقديم تلك المعرفة. نسرد عمداً بعض "المذاهب" أعلاه دون تعريف، لأننا نجادل بأن جوهر النقاش يكمن في جوهره: فهناك يكمن الشغف! هذا لا يعني أن طرق المعرفة العملية للغاية تُحدد مسار الدراسات اللاحقة. كما أن هذا لا يتعلق بالصيحات الفلسفية و"المذاهب" الحالية. على سبيل المثال، عادت المناقشات بين الخصوصية (الأيدولوجيا) والعمومية (القانونية) التي انتشرت على نطاق واسع في صفحات الجغرافيا الأكاديمية في خمسينيات القرن العشرين، بأشكال مختلفة على مدار نصف القرن الماضي مع انتقادات للسرديات الكبرى، ومناقشات حول مزاياها. المناهج الإنسانية، وما بعد البنيوية، والنسبية، وما إلى ذلك. يتغير سياق النقاش باختلاف الأزمنة والأماكن. لا تقتصر المسألة على ما هو محل خلاف، بل على وجود خلاف يُعتمد ويُستخدم بشكل إبداعي لدفع مناهج المعرفة الجغرافية.

مناهج المعرفة الجغرافية

عند مواجهة الطالب الجديد لأول مرة بالأدبيات المتعلقة بكيفية بناء الجغرافيين لعالمهم فكرياً ، يواجه مجموعة محيرة من البدائل الظاهرة . بصفتها تخصصاً مُسمى ، تُعد الجغرافيا شكلاً قديماً من الاستقصاء الفكري ، يسبق الكلاسيكية اليونانية ومفاهيمها عن التفكير العقلاني . ومع ذلك ، لا يوجد اتفاق يُذكر حول كيفية تشكيل هذا التخصص ، وما يدرسه ، وكيفية القيام بهذه الدراسة . من المؤكد أن ما يُنظر إليه على أنه بحث جغرافي قد تغير بشكل كبير على مر السنين ، وقد أدى نصف القرن الماضي على وجه الخصوص إلى مجموعة متزايدة من الحجج المتضاربة والمتناقضة حول كيفية تشكيل هذا التخصص وممارسته . يحاول هذا الكتاب الكشف عن طرق معرفة الجغرافيا (كيف يُنظر إليها) وممارستها (الفكر المعبر عنه في العمل) دون التضحية بالناس والأماكن كجزء مهم من تلك الممارسة . يحاول الكتاب تصوير الجغرافيا المعاصرة كتخصص معروف وممارس ، يتميز داخلياً بالتباين والاختلاف .

المعرفة دائماً ما تكون جزئية ، والممارسة غالباً ما تكون مشبعة بالشغف . لا يحاول الكتاب شرح كامل مجموعة المعرفة التي تُشكل الفكر الجغرافي المعاصر، بل يُسلط الضوء على الطبيعة المتنازع عليها والمثيرة للجدل لطرق المعرفة المتنوعة . **الحدود التخصصية ليست ثابتة ؛ إنها غامضة ومتغيرة الألوان ، تتغير أمام أعيننا كلما تعمقنا في التركيز.** يصعب تحديد الحدود الفرعية للتخصصات ، ومع ذلك ، يتبنى كل منها مجموعة معرفية مقبولة تُضفي الشرعية على الممارسة . إن تبني طريقة معينة للمعرفة يُميز الأطروحة أو الرسالة ، مما يُتيح درجة معينة من التصنيف . إنه ما يُركز عليه الفاحصون والمراجعون عند محاولتهم وضع العمل ؛ فنجاح أو فشل دراسة معينة غالباً ما يكمن في قدرتها على وضع نفسها في سياق معرفي أوسع . على سبيل المثال ، تُشير مُلخصات الأطروحات أو الرسائل التي تُعلن ، على التوالي ، عن نهج ما بعد استعماري لتطور المستوطنات العشوائية ، أو تقييم إنساني للانتماء والعيش في الوطن ، أو تقييم اقتصادي قياسي للطلب الإقليمي على الإسكان ، أو نقد نسوي للاحتجاز المكاني في الضواحي ، إلى طرق متنوعة وربما متناقضة لترسيخ المصادقية الأكاديمية.

ما بعد الاستعمار ، والإنسانية ، والاقتصاد القياسي ، والنسوية ، هي ثلاث مجموعات من المناهج والممارسات ، لكل منها افتراضاتها وقيمتها وطرق عملها الخاصة . كل منها طرق جغرافية مشروعة للمعرفة ، تجعل الطالب الجديد يكافح لوضعها بين عشرات الطرق الأخرى ، لفهم كيفية ارتباطها ببعضها البعض ، وكذلك باهتمامات الطالب وشغفه . **لا يوجد شيء مطلق أو مقدس في أي طريقة معينة للمعرفة؛** فكل منها يُناقش ويُناقش ، ولا توجد مجموعة معايير واحدة تُضفي من خلالها إحدى طرق المعرفة الشرعية على الأخرى . إن صراع المعرفة ، وانعدام الحدود والمطلقات ، والتوتر بين طرق المعرفة ، كلها أمور مُربكة ومُبهجة في آن واحد . إنها مُربكة لأن كل فلسفة تُقدم حجة جديرة بالثناء لوجودها ، مما يترك خيارات صعبة للطلاب الذين يسعون إلى إضفاء الشرعية على مصالحهم الخاصة . والتقييم مُبهج لأن التوتر الإبداعي بين طرق المعرفة المختلفة يُؤد شغفاً بين المُتابعين ، والشغف مُحفّز دائماً.

بناء المعرفة والممارسة الجغرافية

يُهمَل أحياناً شغف النقاش الأكاديمي ، إذ يُعالج مُركّبو المعرفة الجغرافية ، من خلال تبسيط الحجج والروايات العديدة التي تُشكّل هذا التخصص . تقليدياً ، بُنيت المعرفة الجغرافية بخمس طرق . **أولاً**، يتم تجاوز الالتباس وتجاهل الفلسفات الكامنة وراءها بمجرد الإشارة إلى أن الجغرافيا هي في المقام الأول ما يفعله الجغرافيون (جولد، 1985؛ جونسون، 1991). يعتمد هذا المنظور على تعريفات الجغرافيين الذاتية ، ويُركز

على الممارسات التخصصية . إن الإشارة إلى الأفعال والأنشطة ، بدلاً من هياكل المعرفة الداعمة ، تُركّز على الإنتاج والإنتاجية والفائدة وحل المشكلات قبل كل شيء . من هذا المنظور، يجذب الجغرافيون الأكاديميون الطلاب إلى أقسامهم من خلال تدريس ما يُعد مفيداً ومثيراً للاهتمام لمن يدرسونه . وقد قيل إنهم يميلون أيضاً إلى إجراء أبحاث تهّم الجهات الراعية المالية وترتبط بها (أونوين، 1992: 6). ويمكن القول أيضاً إن بناء مجموعة المعرفة الجغرافية بهذه الطريقة يربطها بنجاح أكبر باحتياجات المجتمع، إلا أن هذه الحجة تفترض أن "الفعل" والإنتاجية من خلال حل المشكلات مفيدان دائماً، ويمكن فصلهما عن طرق المعرفة الأوسع . إنها تتجاهل القضايا الأساسية المتعلقة بكيفية بناء حل المشكلات والفائدة ولمن .

الطريقة **الثانية** لتوليف طرق المعرفة الجغرافية هي منهجية (ينظر كليفورد وفالنتين، 2003، للاطلاع على دليل حول أساليب الجغرافيا البشرية والطبيعية) . تقدم العديد من برامج درجة الجغرافيا خيارات منهجية وتقنية كمسارات دراسية ، أو حتى كشهادات كاملة . مجموعة فريدة من الأدوات - كتلك المضمنة في التحليل المكاني أو النمذجة البيئية والمحددة بهما - تُرسم وتُبرّر حدود التخصصات (ينظر الفصول في الجزء 3). يمكن تعلّم هذه الأدوات وتطبيقها على ظواهر مكانية وبيئية مختلفة . ويمكن القول إن جزءاً كبيراً من النجاح الأخير للجغرافيا في المجتمعات التكنولوجية يُعزى إلى أنظمة المعلومات الجغرافية ، التي تُدير وتُحلّل البيانات المرجعية مكانياً من خلال برامج حاسوبية متطورة (ينظر الفصل 23). يشير التغيير الأخير في الاسم والتوجه من أنظمة المعلومات الجغرافية إلى علم المعلومات الجغرافية إلى إدراك قيود الأنظمة التكنولوجية التي لا تُغدّي بأفكار وأطر المعرفة .

وتتمثل المحاولة **الثالثة** لربط الجغرافيا البشرية بتحديد موضوع يُعنى بما يدرسه التخصص وكيفية دراسته . وتُحدّد هذه التعريفات بعض الأشياء على أنها جغرافية مشروعة وأخرى ليست كذلك . على سبيل المثال ، في مقال شهير ومؤثر، وصف نورمان فينمان (1919) محيط الجغرافيا بأنه يُعرّف على أفضل وجه بالمنطقة ، مجادلاً بأن استخدامها من شأنه أن يُسهم في تركيز هذا التخصص ومنع استيعابه من قبل العلوم الأخرى . وفي الوقت نفسه تقريباً ، صرّح الجغرافي الثقافي الأمريكي كارل ساور ببساطة بأننا "لا نهتم في الجغرافيا بالطاقة أو العادات أو معتقدات الإنسان ، بل يسجله عن المظاهر الطبيعية" 1928 : 342 . غالباً ما تُربط المفاهيم الرئيسية (ينظر هولواي وآخرون، 2003) ومصطلحات مثل المظاهر الطبيعية ، والمنطقة، والبيئة، والفضاء، والمكان، والثقافة، والحجم، وما إلى ذلك، بفئات محددة من المعرفة بطرق مختلفة، حيث تتغير وتتحوّل مع تباين الأفكار المتعلقة بها في اتجاهات مختلفة بفعل الميول الفلسفية المختلفة (راجع إيرل وآخرون، 1996). غالباً ما تُقبل هذه الموضوعات للتحليل الجغرافي دون نقد كجزء من طريقة معينة للمعرفة تتضمن فئات موحدة ، يُشار إليها أحياناً باسم مراجع مستقرة ضمن فلسفة معينة.

المعرفة الجغرافية المنتجة ليُشكّل جمهورٌ مُحدّد هذه الفئات . تعمل اللغة على إنشاء عوالم اجتماعية وطبيعية من خلال ممارسات دلالية أو خطابية تُولّد وتُنظّم الإشارات أو الخطاب في معرفة جغرافية مُحدّدة أو "طرق رؤية" كتلك التي اقترحها فينمان وساور . في محاولته لحل هذا التعقيد ، يُقدّم هذا الإطار طريقة تبدو محايدة للتعامل مع المعرفة الجغرافية . قد تُفكّر استراتيجية **رابعة** بطرق أخرى للمعرفة ، ولكنها عادةً ما تُصنّفها على أنها أقل أهمية أو تُصنّفها كسلائف لطريقة معرفة سائدة . على سبيل المثال ، انطلاقاً من منظور وضعي وكمي ، جادل برايان بيرري (1964) بأن جميع الأنماط والعمليات الجغرافية يُمكن الوصول إليها من خلال إنشاء مصفوفة ضخمة من المتغيرات عبر الزمن . وفي المقابل ، جادل لاري فورد (1984) في ثمانينيات القرن الماضي بأنّ الجغرافيا تنبع من كيفية ملاحظة المشهد الطبيعي، وأنّ جميع الأساليب والممارسات الأخرى تنبع ذلك .

استخدم مايكل جودتشايلد ودون جانيل (1988) تقنيات القياس متعدد الأبعاد على بيانات من عضوية المجموعات المتخصصة بين أعضاء جمعية الجغرافيين الأمريكيين ، وذلك لطرح جوهر عملي وديناميكي لهذا التخصص في تلك المجموعات المتخصصة الأكثر ارتباطاً . وفي وقت لاحق من ذلك العقد ، عرّف مايكل دير (1988) جوهر الجغرافيا البشرية بشكل مختلف تماماً من حيث تطور النظرية الاجتماعية . دافع عن الدور المحوري لهذا التخصص في العلوم الاجتماعية بتركيزه على ثلاث عمليات أساسية تُشكل ما يُسميه **نسيج الزمان والمكان**: **السياسي**، **الاقتصادي**، و**الاجتماعي** . تُعد هذه الاستراتيجيات مهمة بقدر ما تحظى به من استحسان لدى الجغرافيين ، وجميعها قائمة على أجندات.

معظم المؤلفين المذكورين أعلاه على استعداد للاعتراف بهذه الأجندات ، ولكن مع حجج مقنعة ، فإنهم يقدمون أيضاً طريقة فريدة للمضي قدماً تُخفف من حدة التوترات والصراعات أو تتجاهلها . الطريقة **الخامسة** للتعامل مع طرق المعرفة المعقدة والمتباينة تميل أيضاً إلى تخفيف التوترات والصراعات . تقدم هذه الاستراتيجية توليفة تعتمد على مفاهيم تتغير بمرور الوقت (جونستون، ١٩٩١؛ ليفينغستون، ١٩٩٢). تحاول هذه الطريقة في تناول الفلسفة في الجغرافيا تقديم تقييم خطي وموضوعي ومحايدين نسبياً لكيفية بناء المعرفة وتحولها . هناك ما يمكن عده تسلسلاً منمطاً لكيفية وصول الجغرافيين إلى معرفة العالم .

في هذه الصيغة ، تمتد ما يُسمى بالنماذج أو "الإزمات" في هذا التخصص عبر الزمن وتساعد في تحديد ما يأتي بعد ذلك . تتمحور هذه الطريقة في هيكلة المعرفة بشكل أساسي حول تجميع الفلسفات في فئات قد تبدأ ، على سبيل المثال ، بالاحتمية البيئية في أوائل القرن العشرين ، ثم تتدفق عبر الإمكانية ، والإقليمية ، والثورة الكمية ، والبنوية ، والواقعية ، والإنسانية ، والماركسية ، والنسوية ، والجغرافيات المثالية ، وما بعد الاستعمار ، لتنتهي ، ربما ، بما بعد البنوية أو أحدث صيحة فكرية .

من الممارسات الشائعة لدى مؤلفي الكتب المدرسية تبسيط وتعميم الروابط بين الفلسفات المختلفة بهذه الطريقة ، إذ يُعد من الصعب على الطلاب المبتدئين استيعاب كل هذه النقاشات . غالباً ما تُهمل النصوص المتعلقة بالفكر الجغرافي الطبيعة المتنازع عليها للعالم ومعرفتنا به ، من خلال تقديم مجموعة خطية نسبياً من المناهج التي تتداخل مع بعضها البعض ، وتنتهي بطريقة المعرفة المفضلة لدى الأستاذ . فلا عجب أن ينفر الطلاب من هذا الكم الهائل من "المذاهب" والتحديات التي يطرحونها على بعضهم البعض . تُشير "المذاهب" إلى معرفة مجردة ، تُستخرج وتُبسط من مجموعة معقدة للغاية من التفاعلات بين الناس والأماكن والحركات الفكرية (ينظر الجزء الثاني).

بالنسبة لطلاب اليوم ، غالباً ما يقترحون طريقة لبناء المعرفة لا علاقة لها بمشاريع البحث ، بل هي تفسيرٌ لطرق تفكير الجغرافيين المتوفين أو شبه الأحياء ، والتي لا علاقة لها بعالم اليوم إلا بصلّة ضئيلة . والحقيقة أن معظم الكتب والمقالات الموجودة عن الفلسفة والجغرافيا البشرية إما كتبها مؤلف واحد أو عُرضت على الجمهور . إن قراءة كل فلسفة بصوت واحد تعني أن الخطوط العريضة لكل فلسفة متوازنة ومحايطة ومتساوية . وبالتالي ، غالباً ما يفشل الطلاب في فهم **الطبيعة المتنازع عليها لهذا التخصص** ، وينظرون إلى المناهج على أنها بدائل متعددة ، بدلاً من إدراك التوترات بين من يتبنون مواقف فلسفية مختلفة أو إمكانيات التعاون بين من لديهم طرق تفكير مختلفة .

غالباً ما تنشأ هذه التوترات من مجموعة أدبية يتبناها الجغرافيون ويطورونها . كما أن كتابات أشخاص معينين من أماكن معينة في أوقات معينة غالباً ما تُحفز هذه التوترات (ينظر موس، ٢٠٠١ أو غولد وبيتس، ٢٠٠٢ للسير الذاتية للتطور الفكري للجغرافيين ؛ أو هوبارد وآخرون، ٢٠٠٤ للنهج السيرة الذاتية لفهم الأفكار الرئيسية حول الفضاء والمكان) . إن طاقة حركة اجتماعية أو أفكار فرد ، أو ثقافة قسم أكاديمي معين ، ستعزز طرقاً معينة للمعرفة على حساب طرق أخرى . على سبيل المثال ، يُسلط جونستون (2004) الضوء

على أهمية شبكات الأفراد والمسارات المهنية التي تتطور منها الجغرافيا ، وذلك من خلال تتبع المسار الذي سلكه ديفيد سميث - الروابط التي كوّنوها ، والتأثيرات على عملية اتخاذ القرارات أثناء انتقاله من تقليد التحليل المكاني إلى نماذج أخرى .

لذا، بدلاً من افتراض مُخيال جغرافي يُنظّم نفسه حول جدول زمني مُنظّم للأفكار، ماذا يحدث إذا قلنا إنه مُنظّم حول مجموعات مُختلفة من الأشخاص والأماكن والسياقات للأفكار؟ ماذا لو اعترفنا علناً بالروابط السياسية والأخلاقية ، والقصص الشخصية والاجتماعية ، التي تُضفي الحياة على الأفكار؟ ماذا لو استكشفنا الطرق التي تُنشط بها المناهج الفلسفية من خلال الصراع والنقد والتقدم الوظيفي؟ ما أنواع الدروس التي نستخلصها من توثيق اللقاءات بين البحث العلمي والممارسة العملية ؟ كيف تؤثر طريقة عيشنا ، وتفاعلنا مع الصراعات الاجتماعية والسياسية ، والفرص التي تبدو عشوائية ، على مخيلتنا الجغرافية ؟ هذه الأسئلة تُحرك فصول هذا الكتاب . لا يحاول مؤلفو الفصول شرح أو تخفيف التوترات بين طريقتهم المفضلة في المعرفة وطريقة الآخرين .

تقدم فصول هذا الكتاب سرداً سهل المنال لكيفية تقاطع الفلسفات والنظريات المختلفة وتضاربها . بدلاً من البحث عن أرضية مشتركة ، نُقر بأن المعرفة متنازع عليها ومثيرة للجدل وجزئية؛ وأنها تتعلق بالسلطة والارتقاء الوظيفي بقدر ما تتعلق بالبحث عن التنوير؛ وأنها تتعلق بالنزاهة الأخلاقية والحاجة إلى فهم أعمق للظلم الاجتماعي والمكاني؛ ولكنها تتعلق أيضاً بالثقافة الأكاديمية لأماكن وأزمنة معينة. علاوة على ذلك ، يُقدّم هذا الكتاب طريقةً جديدةً لمواجهة الفكر الجغرافي ، إذ يربطه ارتباطاً وثيقاً بالمنهجيات والممارسات . نحن نرفض أساليب التدريس القديمة التي تُجرّد الفكر من الناس والأماكن وممارساتهم . لا نفصل عن الصراع الناشئ بين الأفكار والفصائل التي تتنافس على السيطرة على الجغرافيا كمورد فكري يُساعد على فهم العالم . بل ننخرط في الصراع والتوتر الفكري كزئيمهما بواذر التغيير والمشاركة الاجتماعية من خلال الممارسة . في نهاية المطاف ، **الجغرافيا** ، كغيرها من المساعي الأكاديمية ، تدور حول تغيير العالم نحو الأفضل، وبالتالي، فهي ليست ممارسةً مُنظمةً ومُرتبة.